مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 23 العدد: 2 السّنة: الثّلاثيّ الثّانيّ 2021 ص 369- 392

ثنائيّة الألـم والأمـل في شعر المعتمد بن عباد

أ. جميلة سيش*

تاريخ الإرسال 28- 02- 2019/ تاريخ القبول 29- 09- 2019

التعريف الرقمي للمقال: DOI 10.33705/0114-023-002-023

ملخّص: إنّ المتأمّل لشعر المعتمد بن عباد يجده يشتمل على عدّة مضامين وخبايا بوصفه ملكا شاعرا وفارسا شجاعا وقبل كلّ ذلك إنسانا ذا حسّ مرهف يتمتّع بروح شفافة وبموهبة شعريّة فذّة، وقد جاءت هذه الدّراسة لتحاول استكناه ما ينطوي عليه شعره من قيم جماليّة وفنيّة ونفسيّة انطلاقا من ثنائيّة الألم والأمل التي تظهر بوضوح في قصائده عبر مراحل حياته المختلفة كمرحلة الإمارة ومرحلة الملك ومرحلة الخلع والنّفي والأسر، وقد تقلّب فيها بين الغنى والفقر، والفرح والحزن والأمل واليأس وكذا رغد العيش في القصور وذلّ وهوان ومرارة السّجن والفقر.

Résumé : Le lecteur de la poésie de ALMUtamid Ibn Abbad trouve qu'elle englobe divers thèmes et sens le décrivant roi poète, chevalier courageuse, et avant tout un homme sensible doué d'une âme lucide et d'un talent poétique exceptionnel. Cette étude vient pour dévoiler les valeurs esthétiques artistiques et psychologiques découlant de sa poésie basée sur la dichotomie douleur/espoir, visiblement présente dans sa poésie â travers les périodes de sa vie : celle du prince, celle

* ج. قسم اللغة والأدب العربي ج. باتنة- 1، الجزائر، البريد الإلكتروني: djamila.siche@univ-batna.dz (المؤلّف المرسل)

du roi, celle de sa destitution et celle de l'exil et de l'emprisonnement. Durant lesquelles, il a expérimenté la richesse/la pauvreté, la joie/ la tristesse, l'espoir/ le désespoir ainsi que la vie somptueuse dans les palais et la honte l'humiliation et l'amertume de la prison et la misère.

-نبذة عن حياة المعتمد بن عباد: الشّاعر هو المعتمد على الله محمّد بن عباد وكنيتُه أبو القاسم. من أسرة بني عباد التي تنتمي إلى النّعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة الملقّب بماء السّماء انتقل عرش إشبيليّة إلى المعتمد بعد موت والده المعتضد بالله وكان رجل حروب شجاعا مقداما وأعظم وأشهر ملوك الطّوائف بالأندلس، كان شاعرا يتسم بالنّبوغ والعبقريّة وهو شاعر التّرف والرّخاء والنّعيم قبل أسره وشاعر الألم والهموم والذّكريات بعده. ويمكن تقسيم حياته إلى ثلاث فترات:

1- فترة الشّباب تغمرها مجالسّ الأنس: خمر ونساء، ومجالسّ طرب وأدب، وحرب أحيانا وكانت هذه فترة مرح وسرور وترف ونعيم.

2- فترة الملك: وفيها تولّى زمام الحكم، فزاد ترفه ونعيمه وعظمته، وقصده النّاس من كلّ فجّ واتسع ملكه اتساعا كبيرا، فضمّ قرطبة إلى إشبيليّة ووقف الشّعراء ببابه. وقد اجتمع له من الشّعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس وكان فيه من الفضائل الذّاتيّة ما لا يحصى كالشّجاعة والسّخاء والحياء والنّزاهة..

3- فترة الأسر: وفيها عدا عليه الزّمان فأُسِرَ واقتِيد إلى طنجة ثم إلى أغمات حيث اضطُرَّت بناته إلى كسب العيش بعمل أيديهنَّ، وتوالتّ عليه النّكبات والمِحن وراح في حزنه يتأمّل ويعتبر ويقارن بين الماضي والحاضر فنظم شعرا كان حكاية حاله وصورة لآلامه وآماله[1].

من الطّبيعي إذن، أن نجد في أدب من كانت حياته فسيفساء من الألوان والمشاعر المختلفة التي يختلط فيها الفرح والحزن، الألم والأمل ما يجسّد ذلك لينبثق من هذا المزيج كلّه شعر يتمشى ومقتضيات المرحلة التي يعيشها الإنسان الشّاعر ويصطبغ بإيقاع الحياة ممّا يؤثّر

على الذّات الشّاعرة التي تحاول أن تعبّر عمّا يعتريها من مشاعر وأحاسيس وانفعالات عديدة بما يتناسب مع حالاتها النّفسيّة فتنضح بما فيها من ألم وأمل.

ونبدأ بتبيان مظاهر الألم في شعر المعتمد بن عباد، ثم ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الأمل.

أوّلا: الألم: لقد أحسّ المعتمد بن عباد **بالألم** بنوعيه الجسدي والنّفسي-ممّا فجّر قريحته الشّعريّة وقد جسّد ذلك الألم في إبداعه الشّعري من خلال:

1-الألم النّفسي: أحسّ المعتمد بالألم والحزن في مرحلة مبكرة من حياته، وقد ترجم تجربته النّفسيّة الأليمة إلى تجربة شعريّة محمّلة بشحنات عاطفيّة تشع حزنا وألما وحرقة ونجد ذلك ممثّلا في شعره الذي رثى به نفسه في حياة أبيه المعتضد عندما هُزم وهو يقود جيش أبيه للاستيلاء على مالقة وقد أفلت من يديه زمامها، ولجأ إلى رُندة وقد أحسّ بالخوف الشّديد من أبيه، وعندما تيقّن بأنّه ميّت لا محالة على يديه رثى نفسه رثاءً مزجه بالاعتذار والمغالاة في المديح بقصيدة رائيّة طويلة لم يبدأها بمدح أبيه، بل بالحديث عمّا يؤرّقه من التّفكير بالموت الذي ينتظره على يده ولم يشر إليه إلاّ بعد البيت السّادس من القصيدة، على الرّغم من كثرة أبيات المديح فيه، وهذا ما يدل على بلوغه من اليأس أقصاه، وعلى ضعف أمله في النّجاة من عقاب والده[2]، يقول معبّرا عن خوفه وحزنه وألمه[3]:

فالنّفسُ جازعةٌ والعَينُ دامعةٌ
والصّوتُ منخفضٌ، والطّرفُ منكسِرُ
وحُلتُ لوناً، وما بالجسم من سَقَم
وشِبت رأسًا، ولم يبلغنِيَ الكِبَرُ

يصوّر هذا المشهد توجّس المعتمد بن عباد من انتقام أبيه منه وهذا ما أثّر على ملامحه الجسديّة فدمعت عينه وانخفض صوته وانكسر طرفه وتغيّر لونه لكن ذلك لم يحدث بسبب سقم لحق به وإنّما كان نتيجة لما انتابه من حالة الخوف ممّا انعكس على شبابه ونضارة وجهه واشتعال رأسه شيبا على الرّغم من أنّه لم يبلغ من الكبر عتيا الأمر الذي ينمّ عن مدى الجزع والحزن والألم الذي يشعر به الشّاعر الأمير.

واللافت للنّظر أنّ المعتمد بن عباد لم يعدّم الشّعور بالألم حتى وهو في أوج قوّته وأزهى أيامه، إذ أنّه في مرحلة الملك لم يسلم من الإحساس بالحزن لبعده عن حبيبته؛ حيث كان يشكو من الهوى الذي أوقد في قلبه نيرانا لا تنطفئ ومن الهيام لزوجته "اعتماد" التي "تُعرف بالسّيدة الكبرى، وتُلقّب بالرّمَيْكِيّة نسبة لمولاها رُمَيْك ابن حجاج ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد. وكان مفرط الميل إليها حتى تَلقَّب بالمعتمد لينتظم اسمُه حروفَ اسمها "[4] وهي التي سكنت فؤاده وملكت روحه ولبّه فتغنّى بحبّها في شعره، وقد دسّ اسم زوجته "اعتماد" في هذه المقطوعة بحيث يبدأ كل بيت بحرف من حروف اسمها، يقول:[5]

أغائبـــةَ الشّـــخص عـــن نـــاظِري ... وحاضـــرةً في صـــميم الفـــؤادِ
عليـــكِ ســـلامٌ بقـــدرِ الشّـــجو ... ن، ودمـــعِ الشّـــؤون، وقَـــدر السّـــهادِ
تَملَّكـــتِ مـــنِّي صَـــعْبَ المَـــرا ... م، وصـــادَفْتِ وُدِّيَ سَـــهْلَ القيـــادِ
مُـــراديَ لُقيـــاكِ في كـــلّ حـــينٍ ... فَياليـــتَ أَنِّيَ أُعطـــى مُـــرادي
أَقـــيمي علـــى العهـــد مـــا بيننـــا ... ولا تســـتَحِيلي لِطُـــول البِعَـــاد
دَسَسْـــتُ اســـمَكِ الحُلْـــوَ في طيّـــه ... وألَّفـــتُ فيـــه حـــروف " اعتمـــاد"

ويخاطب نفسه الجريحة التي اكتوت بنار العشق الذي منع عنه النّوم ويدعوها إلى الصّبر على جفاء الحبيب الذي سبّب له ألما كبيرا ممّا جعل دموعه تنزف بحرارة وقد تجلّى ذلك في قوله:[6]

أيـــا نفـــسُ، لا تجزعـــي، واصـــبرِي ... وإلاّ فـــإنّ الهـــوى مُتلِـــفُ
حَبيـــبٌ جَفـــاكِ، وقلـــبٌ عصـــاكِ ... ولاحٍ لحـــاكِ، ولا مُنصِـــفُ
شُـــجونٌ مَـــنَعْنَ الجفـــونَ الكَـــرَى ... وعَوَّضْـــنَهَا أَدمعًـــا تَـــنزفُ

كلّ ذلك يؤكّد ما عاناه الشّاعر من ألم العشق غير أنّه لا يقارن بما كابده من آلام الأسر لأنّ الفرق بين الألمين كبير جدا.

ومن المواقف المحزنة التي مرّ بها المعتمد في حياته وعبّر عنها في شعره أنّه لما خُلع غربه يوسف بن تاشفين إلى العدوة ووجد النّاس قد خرجوا للاستسقاء أنشد يقول[7]:

خَرَجُــوا لِيَسْتَسْــقُوا، فَقُلْــتُ لَهــم دَمعــي يَنــوبُ لَكــم عــنِ الأنْــواءِ
قــالوا: حقيــقٌ، في دُموعِــكَ مَقْنَــعُ لَكِنَّهــــا ممزوجــــةٌ بِــــدماءِ

وممّا يجسّد الحالة النّفسيّة الحزينة التي يعيشها الشّاعر توظيفه لكلمة الاستسقاء التي تعني طلب الغيث وزعمه أنّ ما يسكبه من دموع ينوب عن الغيث ومخاطبته للقوم بأن يكتفوا بغزارة عبراته، وقد صدقه النّاس واعتذروا له بأنّها غير كافيّة لكونها ممزوجة بالدّماء. وهنا يبلغ الشّاعر قمّة الشّاعريّة بهذا الزّعم المؤيّد من السّامعين وهذا ما ينمّ عن شدّة الألم والمعاناة التي تتقطع لها الأكباد وتنفطر لها القلوب.

الملاحظ أنّ الشّاعر بعد نفيه ووقوعه في الأسر تبدّلت حياته وتحوّلت إلى جحيم لا يطاق ولم يجد في سجنه ما يخفّف به عن ذاته المتألّمة المثقلة بالهموم سوى اللجوء إلى الشّعر، وقديما تحدث "ابن قتيبة" عن الخلوة في الحبس وجعلها من إحدى أنسب الأوقات للإبداع الشّعري، يقول: "وللشعر أوقات يُسرعُ فيها أَتِيُّه ويسمح (فيها) أبِيُّه. منها (...) الخلوة في الحبس".[8] وتتجلّى أهميّة ذلك في جعل النّفس قادرة على الإبداع والكتابة فهي لا تتحرّر من هذا السّجن إلاّ بإطلاق المشاعر المكبوتة التي تتجسّد في هذه القصائد التي تعبّر عن حال صاحبها أصدق تعبير وتخبر عن واقعه المرير داخل الحبس وما يعانيه من مآسٍ وآلام.

إنّ المأساة التي عاشها الشّاعر فجّرت قريحته ودفعته إلى الخوض في غرض الرّثاء الذي يعدّ الحزن والألم جوهر ما فيه، وقد "قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأنّا نقول وأكبادُنا تحترق"[9] وبخاصّة عندما يتعلّق الأمر برثاء الولد وما يتضمّنه من حزن وألم وانكسار للنفس والقلب والجوارح.

وعلى هذا الأساس وجد الشّاعر المسجون في رثاء بنيه وبكائهم متنفّسا عن آلامه وفي الجزع عليهم تعبيرا عن يأسه وتبديدا لأحلامه[10] وفي خضم ذلك الرّثاء بثّ لواعج صدره من خلال الامتزاج بالطّبيعة التي وظّفها في شعره لتأخذ دلالات وأبعادا رمزيّة تمكّنه من التّعبير عن أحزانه ويتجلّى ذلك مثلا في تصويره لقمريّة نائحة على سكنها، وأمامها وكر فيه طائران يردّدان نغما، يقول[11]:

بكــتْ أن رأت إلْفــيْنِ ضــمَّهما وكــر
مســاءً، وقــد أخــنى علــى إلْفِهــا الــدّهرُ

بكــتْ، لــم تُــرِق دمعًــا، وأسْــبَلْتُ عَــبرةً
يُقَصِّــرُ عنهــا القَطــرُ مهمــا هــمَى القَطــرُ
وناحــتْ وباحــتْ، واســتراحتْ بِسِــرِّها
ومــا نطقــت حرفًــا، يبــوحُ بــه ســر
فمــالي لا أبكــي! أم القلــبُ صــخرةٌ
وكــم صــخرةٍ في الأرض يجــري بهــا نهــرُ
بكــت واحــدا لــم يُشْــجِهَا غَــيرُ فَقــدِه
وأَبكــي لأُلَّافٍ، عديــدُهُم كُــثْرُ

استنجد الشّاعر بمشهد قمريّة نائحة على ولدها الذي فقدته ليستحضر مأساة فقْد فلذّات كبده وليستدلّ به على نار الحزن الذي ألهب وجدانه وأحرق روحه مع علمه أنّ ذلك لا يصوّر ما هو فيه من ألم نفسي. كبير فحزنُها لا يقارن بحزنه الشّديد لأنّها تبكي واحدا ويبكي أولادا كثرا وكيف لا يبكي وقلبه يعتصر ألما وهو من لحم ودم وليس صخرة، بل كم من صخرة يتفجّر منها الماء، وقد استلهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [12]

وكل هذا يوحي بعظم الفجيعة التي ألمّت به فخسر كل شيء: ملكه ومجده وأبناءه وحريّته.

لقد حاول المعتمد أن ينقل إلينا حالته النّفسيّة السّيئة وانفعالاته الدّاخليّة ليجسّد مدى عمق الآلام والمعاناة التي يعيشها في محنته، ومن ذلك قوله في رثاء ولديه[13]:

ونجمــان، زيــنُ للزمــان، احتواهمــا
بقرطبــةَ النّكــداء، أو رُنــدةَ، القــبرُ
غــدرتُ إذاً إن ضــنَّ جَفــني بقطــرِه
وإن لؤُمــت نفــسي، فصــاحبها الصّــبرُ

فقُـــل للنجـــوم الزّهـــر تبكيهمـــا معـــي

لِمِثلِهِمـــا فلتحـــزَن الأنجـــمُ الزّهـــرُ

إنّ مصاب الشّاعر الجلل جعله يُسقط ما يشعر به من حزن وألم على الطّبيعة والأشياء من حوله وكأنّها تقاسمه الهموم والأحزان، وهنا يصمّم على البكاء بلا انقطاع ولا يكتفي بالبكاء وحده، بل يُشرك النّجوم في البكاء معه والحزن على ما أصابه من بلاء كبير، نراه يندب ولديه قائلا[14]:

مـــنّي السّـــلام، ومـــن أُمّ مفجَّعـــة

عليكُمـــا أبـــدا، مثـــنى ووُحـــدانَا

أبكـــي وتَبكـــي، ونُبْكـــي غيرنَـــا أســـفًا

لَـــدى التّـــذكُّرِ، نِســـوانا وولـــدانَا

ويشتدّ حزن الشّاعر فيبثّ صرخة كلّها عويل وبكاء يردُّ بها على الذين يدعونه إلى الصّبر بعد وقوعه في الأسر ومقتل ولديه، يقول[15]:

يقولـــون صـــبرا، لا ســـبيل إلى الصّـــبْرِ

ســـأبكي، وأبكـــي مـــا تَطَـــاولَ مـــن عُمـــرِي

هـــوى الكَوكَبـــانِ: الفـــتحُ ثـــمّ شَـــقيقهُ

يَزيـــدُ، فهـــل عنـــد الكواكـــب مـــن خُـــبرِ

نَـــرَى زُهرهـــا في مـــأتمٍ كـــلَّ ليلـــةٍ

تُخمَّـــشُ لهفًـــا وســـطَهُ صـــفحةُ البـــدرِ

يَـــنُحن علـــى نَجمـــين، أُثكلـــتُ ذا وذا

وأَصـــبر؟! مـــا للقلـــب في الصّـــبر مـــن عُـــذرِ

لم يجد الشّاعر المعتمد سبيلا إلى الصّبر على فقْد ابنيه الغاليين الفتح وشقيقه يَزيد لذا قرّر البكاء ما تبقّى من عمره على هذين الكوكبين اللذين أقامت لهما النّجوم والكواكب مأتما تنوح فيه عليهما ممّا ينمّ عن هول المصيبة، وهنا لا مجال للشك في قوّة وصدق عاطفة الشّاعر التي تتدفّق ألما وحزنا على فقدان فلذات كبده.

ويزداد حزن المعتمد بن عباد عندما يتذكّر مجده التّليد وقصوره بالأندلس بأسمائها **(المباركُ، الثّريَّا الوحيدُ، الزّاهي)** وحنينه إليها، بل أنّ هذه القصور التي تفنّن في تشييدها حنّت إليه إلى درجة أنّها بكت عليه شوقا حين فارقها، يقول[16]:

بكـــى المبـــاركُ في إثـــر ابـــنِ عبّـــادِ
بكـــى علـــى إثـــر غِـــزلان وآســـادِ
بكـــت ثُريَّـــاهُ لا غُمـــت كواكبُهـــا
بمثـــل نَـــوءِ الثّريَّـــا الـــرّائحِ الغـــادي
بكـــى الوحيـــدُ، بكـــى الزّاهـــي وقبَّتـــه
والنّهـــرُ، والتّـــاجُ، كـــل ذُلُّـــهُ بـــادي

إنّ تشخيص المعتمد بن عباد للقصور ومحتوياتها في صورة إنسان يستنزف دموعه حزنا وألما على ما ضاع، ساعده على تحرير الحمولة النّفسيّة المخبوءة في أغوار ذاته، لتنثال على شفتيه أنغاما حزينة تخفّف من وطأة المحنة عليه.[17] إنّه يوظّف الأشياء والجمادات في صورة إنسان يشاركه الحزن والألم والبكاء...

من الواضح أنّ تكرار كلمة البكاء بألفاظها المختلفة وصيغها المتعدّدة **(العَينُ دامعةٌ دَمعي، سأبكي أبكي وتَبكي، ونُبْكي غيرنَا أسفًا، ناحت وباحت، بكت، بكى وأسْبَلْتُ عَبرةً يُقَصِّرُ عنها القَطرُ مهما همَى القَطرُ، غدرتُ إذاً إن ضنَّ جَفني بقطرِه، بكيتُ ...)** يوحي بالكآبة والحزن ويضفي تلك النّغمة الحزينة على شعر المعتمد بن عباد الذي لم يكتف بتكرار معنى البكاء والنّدب للتعبير عن آلامه ومشاعره الكئيبة، بل اعتمد على ألفاظ أخرى للدلالة على حزنه الشّديد وللتعبير عن ذلك الحس المأساوي الذي خيّم على روحه المتألّمة بسبب الظّلم الذي يلقاه في ظلمات السّجن وما يؤكّد هذا أنّ الشّاعر يستعمل اللون الأسود في قصائده للدلالة على الهموم والمصائب والمآسي وقسوة الحياة، وهو رمز لأيام الحزن والألم، ومن أمثلة ذلك قوله: **وتأبَى الخطوبُ السّودُ إلاّ تماديَا، سُودُ خُطوبِ الدّهر...الخ**، وفي هذا تصوير دقيق لسوداويّة الحياة وقتامتها في نظر الشّاعر الذي سخرت منه خطوب الدّهر وجرّعته شتى ألوان العذاب والمهانة وأضحى يعيش في الظّلام والشّقاء.

ويتجسّد الألم النّفسي-أيضا في آلام الغربة والحنين إلى الوطن والبعد عن الأحباب والدّيار، والإحساس بالذّلّ والهوان وفقدان الإرادة والحريّة والأمجاد... ولم يستطع الشّاعر أن يكبح جماح نفسه الحزينة فذرف الدّموع وصوّر معاناته بشتّى الطّرق والأساليب، ومن أمثلة ذلك أنّ المعتمد رأى سرب القطا فتذكّر الأهل والأحباب الذين فارقهم، يقول[18]:

بكيتُ إلى سِرب القَطَا إذْ مَرَرْنَ بي
سَوارِحَ، لا سَجنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ
ولم تَكُ -والله المعيذ -حَسادة
ولكن حنينًا أنَّ شَكْلي لها شَكْلُ

إنّ رؤيّة المعتمد الأسير لسرب القطا يسرح ويمرح في الكون منطلقا بلا قيود أثار في نفسه الشّجن ممّا جعله يوازن بين حاله وحال القطا فشتان بين الحريّة والأغلال المكبّلة لحريّة الشّاعر وهذا، طبعا، ليس حسدا منه للقطا وإنّما حنين منه إلى أيام الحريّة. وهنا أخذ يهنّئها بأن لم يُفرَّق جمعها ولم تذق مرارة البعد عن أهلها وهذا خلافا لما حدث معه في نكبته التي يشكو فيها فراق الوطن وبُعده عن الأحباب وشعوره بالحنين والكآبة والحزن واللوعة والحسرة، يقول:[19]

هنيئًا لها أنْ لم يُفَرَّق جميعُها
ولا ذاق منها البعدَ من أهلها أهلُ
وأنْ لم تَبِتْ مِثلي تَطيرُ قُلوبُها
إذا اهتزَّ بابُ السّجن أو صَلْصَلَ القُفلُ

لقد عبّر المعتمد بن عباد عمّا تعانيه الذّات الإنسانيّة من غربة نفسيّة وجسديّة تحرق صدره وتعصر قلبه وتدمع عينيه، ونجد آثار ذلك واضحة وجليّة في شعره الذي يصوّر حزنه وألمه وغربته وأسره ووحدته، يقول[20]:

غريبٌ بأرضِ المغربينَ أسيرُ
سَيبكي عليه منبرُوسريرُ

إنّ محنة الأسر ولّدت لدى الشّاعر شعورا بالذّل والمهانة والوجع الذي لا يستطيع تحمّله فيطلق العنان لمخيّلته للعودة إلى ماضيه المشرق وهنا يتذكّر، وهو في سجن أغمات، أيّام العزّ والرّخاء والسّعادة ويتأسّف على ما فات وبخاصّة أيام العيد التي كانت مصدر بهجة وسرور وأصبحت اليوم مصدر حزن وأسى بما تثير في نفسه من أشجان وآلام، ومن جملة ما تذكّره حينما رأى بناته بثياب رثّة يطأن في الطّين بأقدام حافيّة يوم الطّين الذي أمر فيه بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد فصيّر الجميع طينا في القصر تخوض فيه زوجته وجواريها[21] يقول في يوم عيد يصف حاله وحال بناته السّيئة[22]:

فيما مَضى ـ كنتَ بالأعياد مَسرورا
فَساءكَ العيدُ في أغماتَ مَأْسُورَا
تَرى بناتِكَ في الأطمار جَائعةً
يَغزِلْنَ للنّاسِ، لا يَمْلِكْنَ قِطميرَا
بَرَزْن نَحْوَكَ للتَّسليم خَاشعةً
أَبصَارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكاسِيرَا
يَطَأْنَ في الطّينِ، والأقدامُ حَافيّة
كأنّها لم تَطَأ مِسْكًا وكافورَا
لا خدَّ إلا ويشكو الجَدْبَ ظاهرُهُ
وليس إلا مع الأنفاس مَمْطورَا
أفطرتَ في العيد لا عادَتْ إساءتُه
فكَان فِطرُك للأكباد تفطيرا
قد كَان دَهرُك إنْ تَأمره ممتثلًا
فرَدّكَ الدّهرُ منهيًّا ومأمورَا
مَنْ بات بعْدكَ في مُلك يُسَرُّ به
فإنّما باتَ بالأحلام مغرورا

نلاحظ من هذه المقطوعة أنّ المعتمد بن عباد اختار للروي حرف الرّاء مقترنا بحرف المدّ الألف، وحرف الرّاء الذي يصطدم اللسان عند النّطق به بأعلى السّقف في الفم ولا يستطيع تجاوز هذا السّقف، وفي ذلك إيحاء إلى الثّورة الجامحة الكامنة في نفس الشّاعر الأسير، التي يحاول إظهارها رغم يأسه، فتصطدم هذه الثّورة بالقيد والسّجن الذي يقيم فيه، ويبحث الملك الأسير عن مخرج لهذا القيد، كما هو حرف الرّاء ومخرجه المقيد في النّهاية بسقف الحلق، فيجد أنّ المخرج لذلك هو مدّه بالألف فيتحرّر الشّاعر من هذا القيد، فينطلق حرف الرّوي ممدودا بما يحمل هذا الإطلاق للقافيّة هنا من إطلاق للألم والحزن والمشاعر المكبوتة داخله.[23]

وفي هذا ما يجسّد الحالة النّفسيّة الصّعبة التي يمرّ بها الشّاعر اليوم والتي دفعته إلى تذكّر الماضي السّعيد فأخذ يبكي ويتألّم وهذا أبرز دليل على شدّة حزنه وألمه وحسرته على ما ضاع من مُلك ومجد.

ويعمد المعتمد بن عباد إلى المقارنة بين حياته بالأمس واليوم؛ فالذّلّ والفقر والضّعف وغيرها من الصّفات التي لحقت به في غياهب السّجن أزالتّ ما كان فيه من عِزّ وغنى وقوّة وكرم...، يقول[24]:

ذُلٌّ وفقـــــرٌ أزالا عِـــــزَّةً وغِـــــنىً

نُعـــمى اللّيـــالي مـــن البلـــوى علـــى كَثَـــبِ

قـــد كـــان يســـتلِبُ الجبّـــارَ مهجَتَـــه

بَطـــشِي، ويحيـــا قتيـــلُ الفقـــرِ في طَلـــبي

كلّ ذلك يصوّر الواقع المرير والحالة المزريّة والظّروف القاسيّة التي أحيط بها المعتمد في سجنه ممّا أسهم في تحطيم نفسيته وكسر كبريائه الأمر الذي جعله يطلق حكما على قبح الدّهر لأنّه يأخذ من الإنسان بقدر ما يعطيه، يقول[25]:

قُـــبِّحَ الـــدّهرُ فمـــاذَا صَـــنَعا

كُلَّمـــا أعطـــى نَفِيسًـــا نَزَعَـــا

كان للسجن دور كبير في إذكاء الإحساس بالحزن واليأس في نفس المعتمد بن عباد، وقد جاء شعره طافحا بالألم، فهو " الأسير الذي هزمه عدوّه وأبت أن تنهزم نفسه، فظلّ يكابد محنته في ضرب من الاحتراق الذّاتي، يواجه فيه رجلٌ عظيمُ النّفس بطولي الجبلة، مصيرَه البائس قسرا، فينتفض تحت الصّغار انتفاض النّسر الحبيس "[26].

وقد لخّص لنا حالة العسر التي ظنّ -في لحظة اليأس الذي سيطر عليه في الأسر- أنّ لا يُسر بعده ثم يعود للاستغفار مدركا بأنّ الله -عزّ وجلّ- هو مدبّر الأمور كلّها، وهذا العلم بأهمّيّة الاستغفار في تنفيس الكروب، يقول[27]:

أَسْـــرٌ وعُسْـــرٌ، ولا يُسْـــرٌ أُؤَمِّلُـــهُ أَســـتغفرُ اللهَ، كـــم لله مـــن نَظَـــرِ

القارئ لهذا البيت يلاحظ بأن الشّاعر المعتمد استحضر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[28] وقد اعتمد على الجناس النّاقص

(أَسْـرٌ، عُسْـرٌ، يُسْـرٌ) الذي يحدث نغما موسيقيا داخليا تستحسنه الآذان وتستعذبه النّفوس.

إنّ تأمّل الشّاعر في كل ما جرى له من نكبات ومحن ولّد في نفسه الشّعور بالوحدة والاغتراب والمعاناة، وقد بلغ الحزن واليأس بالمعتمد أن رأى في الموت راحة له من حياة الشّقاء التي يعيشها في الأسر وقد فقد معها طعم الحريّة التي تضمن له الحياة الكريمة والعيش الهنيء ممّا أزهده في البقاء على قيد الحياة وبخاصّة عندما ذاق ويلات السّجن فضاقت عليه الدّنيا بما رحُبت، وهذا ما نلاحظه في قصيدة أجاب بها الوزير أبا العلاء زُهْر بن عبد الملك بن زُهر الذي دعا له بطول البقاء، يقول[29]:

دعَـــا لي بالبقـــاءِ، وكيـــفَ يَهـــوى
أَســـيرٌ أَن يَطـــولَ بـــه البقـــاءُ
ألـــيسَ المـــوتُ أَروحَ مِـــنْ حَيـــاةٍ
يَطـــولُ علـــى الشّـــقيِّ بهـــا الشّـــقاءُ
فَمَـــنْ يَـــكُ مِـــن هَـــواهُ لقـــاءُ حِـــبٍّ
فـــإنَّ هَـــوايَ مِـــن حَتفـــي اللِّقـــاء

أَأَرغـــــبُ أن أعـــــيشَ أرَى بَنـــــاتِي
عَـــــوارِيَ، قـــــد أضـــــرَّ بهـــــا الحَفـــــاءُ

يُحاول الشّاعر من خلال هذه الأبيات أن يصوّر حالتّه النّفسيّة المتعبة في السّجن وقد أحاطت به الهموم والمآسي، وأثقلت كاهله القيود والأغلال، وحرمت جفنه من النّوم وسلبته لذّة العيش والأمل في الحياة ممّا جعله يتمنّى الموت علّه يريحه ممّا يُقاسيه من آلام وعذاب ومرارة.

إنّ استغراق الشّاعر في التّأمل والتّفكير في حياته جعل تجربته في التّعبير عن الألم تتطوّر إلى أن آلت به إلى الحكمة والاعتبار من دروس الحياة، يقول مستسلما للقدر ومؤمنا بأنّنا سائرون إلى زوال مهما كانت منزلتنا في هذه الحياة الدّنيا[30]:

أرى الـــــدّنيا الدّنيّـــــة لا تُـــــوَاتِي
فَأَجمِـــــلْ في التّصـــــرُّف والطّـــــلابِ
ولا يَغْـــــرُرك منهـــــا حُســـــنُ بُـــــردٍ
لـــــه عَلَمـــــان مـــــن ذَهـــــبِ الـــــذّهابِ
فأوّلهـــــا رجـــــاءٌ مـــــن سَـــــرابٍ
وآخِرُهـــــا رِداءٌ مـــــن تُـــــراب

هكذا توصّل المعتمد إلى قناعة مفادها أنّ الإنسان لا يغترّ بالحياة الدّنيا لأنّه يؤول إلى فناء ومن ثمّة يتوجّب عليه أن يستسلم لمصيره المحتوم ويتقبّل خطوب الدّهر بكلّ صدر رحب وقد لمسنا ذلك عنده منذ بداية مرحلة النّفي والأسْر فقد استقبل المعتمد ذلك بنفس مؤمنة راضيّة بقضاء الله وقدره، وقد عُومِل بقسوة دون مراعاة لسابق جلاله، ولما رأت زوجته السّجن الموحش المخيف، بعد ذلك القصر الشّامخ، ارتاعت لهول ما رأت وقالتّ "يا سيدي لقد هُنَّا هُنَا"، فقال المعتمد مصوّرا هذا الألم الدّفين، والاستسلام للقضاء[31]:

قالـــــتّ: لقـــــد هُنَّـــــا هُنَـــــا مَـــــولايَ أَيـــــنَ جاهُنَـــــا
قُلـــــتُ لَهَـــــا: إلَى هُنَـــــا صَـــــيَّرَنَا إلهُنَـــــا

المتأمّل لهذين البيتين يلاحظ بأنّ المعتمد استطاع أن يعبّر عن حزنه ومأساته بلغة جميلة رقيقة ذات وقع موسيقي من خلال تكرار بعض الحروف والكلمات وتوظيف الجناس (هُنَّا – **هُنَا، قالتّ** –قلت، **جاهُنَا –إلَى هُنَا** –إلهُنَا) ممّا يضفي على شعره نغما موسيقيا عذبا جعله يأتي في صورة جذابة مبتكرة يستحسنها المتلقي.

2 –الألم **الجسدي:** استطاع المعتمد بن عباد أن يحوّل الحزن الذي يعصر قلبه نتيجة ما يعانيه في السّجن من آلام القيود والأغلال إلى شعر تجسّد في تلك القصائد الرّائعة التي تصوّر معاناته الكبيرة وآلامه الشّديدة في الأسر وبخاصّة عندما يتذكّر أيام البطولة والفروسيّة وكيف أنّه كان يقاتل في ساحات الوغى ويتأمّل الحال التي آل إليها؛ فقد أصبح عاجزا عن فعل أيّ شيء بسبب تلك القيود التي كبّلته وأعاقت حركته وثقُلت على روحه وبدنه، يقول[32]:

غَنَّتْكَ أَغماتيّة الأَلحانِ
ثَقُلَتْ على الأَرواحِ والأَبدانِ
قد كانَ كالثّعبَان رمْحُك في الوَغَى
فَغَداَ عَليكَ القَيدُ كالثّعبانِ
مُتَمَدِّدًا بِجِذَاكَ كُلَّ تَمدُّدٍ
مُتعطِّفًا لا رحمةً لِلعَانِي

فكان من الطّبيعي أن يصدر مثل هذا الشّعر عن شاعر ملك تعوّد أن يعيش في العز والنّعيم والحريّة وفجأة تتغير أحواله فيصبح أسيرا غريبا، مأمورا بعد أن كان الآمر النّاهي فقيرا بعد أن كان غنيا، وحيدا بعد أن كان له خدم وحشم، مثقلا بالهموم مكبّلا بالقيود التي تأكل لحمه وتعضّ ساقه عَضَّ الأُسُود، يصف آلام القيود التي ضاق بها ذرعا قائلا[33]:

تَبَدَّلْتُ من عِزّ ظِلِّ البنودِ بِذُلِّ الحدِيدِ، وثِقْلِ القُيُودِ
وكان حديدي سِناناً ذَليقًا وعَضْبًا رقيقًا صقيلَ الحديد
فقدْ صار ذَاك وذا أدهما يَعَضُّ بِساقيَ عَضَّ الأُسُودِ

لقد عمد المعتمد بن عباد في تشكيل صوره الشّعريّة إلى توظيف التّجسيد والتّشخيص اللذين يقومان على نسبة صفات البشر إلى أفكار مجرّدة أو إلى أشياء لا تتصف بالحياة مثل

مخاطبة الطّبيعة كأنّها شخص يسمع ويستجيب[34]، فخلع على الطّبيعة والأشياء من حوله مشاعره وأحاسيسه وكأنّها تحسّ وتشعر وتفهم وتشاركه همومه، فهو يتحدّث معها لتخفف عنه آلامه وأحزانه ووحدته، فمثلا نراه يكلّم القيد ويناجيه ويخبره بأنّه مسلم لعلّه يلين ويشفق عليه ويرحمه، يخاطبه قائلا له[35]:

قَيْدي أمَا تَعلمُني مُسلِماً ... أَبَيْتَ أَنْ تُشفِقَ أو تَرحَمَا
دَمي شرابٌ لكَ، واللَّحمُ قد ... أَكَلتَه، لا تَهشِمِ الأَعظُمَا
يُبْصِرُنِي فيكَ أَبُو هَاشمٍ ... فَيَنْثَنِي القَلبُ وقد هُشِّما
ارحَمْ طُفيلاً طائشاً لُبُّهُ ... لَمْ يَخشَ أنْ يأتيكَ مُستَرحِماَ
وارحَمْ أُخَيَّاتٍ لَهُ مِثلَهُ ... جَرَّعْتَهُنَّ السّمَّ والعَلْقَمَا
منهُنَّ من يفهم شَيئا فقَد ... خِفْنَا عليه للبكاء العَمَى
والغيرُ لا يفهمُ شَيئا فَما ... يَفْتحُ إلاّ لِرَضاعٍ فَمَا

تعكس هذه المقطوعة رهافة حس الشّاعر الذي أخذ يخاطب القيد ويناجيه وكأنّه إنسان يشكو إليه همومه وأحزانه، وهنا تنطلق صيحة حسرة وأسى لا يعرف مرارتها إلاّ من تجرّع ذل السّجن وآلام القيود.

لقد عبّر الشّاعر عن حزنه ووحدته وبخاصّة عندما أُطلق صراح أهل فاس الذين كانوا يؤنسونه في سجنه وكان يتسلّى بمجالسّتهم بينما بقي هو وحيدا يتشكى من ضيق الكبل وآلام القيد الذي يلتفّ حول يديه وساقيه كالثّعبان يبطش بهما كما الأسود وإزاء هذا الوضع لا يملك إلاّ أن يهنّئهم بخروجهم جماعات ليخلّفوه وراءهم وحيدا يسكب الدّموع وأن يطلب منهم أن يدعوا له بالفرج والخلاص من وثاقه الذي لم يحن موعد فكّه بعد، يقول[36]:

أَمَا لانسِكابِ الدّمعِ في الخدّ راحةٌ
لقد آن أن يَفْنَى ويفنى به الخدُّ
هَبُوا دعوةً يا آل فاسٍ لمبتلًى
بما مِنْهُ قد عافاكمْ الصّمَدُ الفَردُ

تَخلَّصتُمْ من سجن أغمات، والتّوَتْ
عَليَّ قُيودُ لم يحِنْ فَكُّها بَعدُ
مِنَ الدّهمِ، أمّا خَلْقُها فأَساوِدُ
تَلَوَّى، وأمَّا الأيدُ والبطشُ فالأُسْدُ
فَهُنِّئتُم النّعمى، ودامت لِكُلِّكُم
سَعادتُهُ إنْ كانَ قدْ خانَني سعدُ
خرجتُم جماعاتٍ، وخُلِّفْتُ وَاحِدًا
ولله في أَمْري وأَمرِكُم الحَمدُ

هكذا تخرج صرخات الرّوح الحزينة والجسم الجريح لتعبّر عن حجم المعاناة والألم الذي لا يحتمله الإنسان العادي فما بالك بملك شاعر اعتاد حياة التّرف في القصور وألِف العيش بين أحضان الطّبيعة الأندلسيّة الخلابة ذات الهواء النّقي والنّسيم العليل ممّا انعكس على حسّه المرهف وروحه الشّفافة وطباعه الرّقيقة وذوقه المهذب ونظرته إلى الجمال والكون والحياة الشّيء الذي صقل موهبته الشّعريّة.

إنّ المتصفّح لديوان شعر المعتمد بن عباد يجده قد استخدم معجما شعريا يتميز بكثرة دوران الألفاظ التي تجسّد واقعه المرير وتصوّر نفسيّته الحزينة وتدل على الألم والمأساة وذلك من خلال ألفاظ موحيّة قويّة دالة على: الانكسار والخيبة والحسرة والأسى، والحزن واليأس، والموت، والشّقاء، والبؤس، والمعاناة، والشّكوى والتّشاؤم والدّموع، والعبرة، والبكاء والليالي، والبعد، والغربة، والأسر، والقيد، والظّلام، والذّل وسود خطوب الدّهر...

وممّا يوضّح قدرته على تجسيد مشاعر الحزن والأسى أنّه عندما أحسّ بدنوّ أجله رثى نفسه وهو في الأسر، يقول[37]:

قبرَ الغريبِ سقاكَ الرّائحُ الغادي
حقًّا ظفِرتَ بأشلاء ابن عبّاد
بالحِلم، بالعِلم، بالنّعمى إذ اتّصلت
بالخِصب إن أجدَبوا، بالرّي للصّادي

ولعلّنا نجد في كل هذا ما يلخّص شعوره بالألم والحزن واليأس...

هكذا استطاع المعتمد بن عباد أن يحوّل تلك الآلام والأحزان التي عصفت به إلى شعر جميل تستعذبه النّفوس.

ثانيا: الأمل: الجدير بالذّكر أنّ الحياة لا تستقيم دون ثنائيّة الألم والأمل فلا وجود لأحدهما بغياب الآخر وكأنّهما وجهان لعملة واحدة؛ حيث أنّ الألم والحزن مرتبطان مع الحياة التي لا تنفصل عن الأمل، إذ لا يأس مع الحياة وهذا هو المنطق الذي تقبله الفطرة السّويّة.

ومن يتصفّح ديوان المعتمد بن عباد يلاحظ بأنّه لم يفقد الأمل حتى وهو في أشدّ أيامه حزنا وألما ففي مرحلة الإمارة راح ينظم شعرا يعتذر فيه من والدّه الذي غضب عليه راجيا عفوه طامعا في كرمه، آملا في قربه، يقول[38]:

أَمُعتَضِـــدًا بِـــالله دَعـــوةَ آمـــلٍ
رَجـــاكَ علـــى بُعـــدٍ، فأصـــبحَ ذا قُـــرب
فَـــأمَّمَ مَـــأمُولاً، وأَمَّ مُيمَّمـــاً
وحَامـــتْ أمانيـــهِ علـــى مَـــوردٍ عَـــذبِ

وتتجلّى مظاهر الأمل عنده في البوح بأمنيّته المتمثّلة في أن يصفح عنه والده لأنّ سخطه عليه أعلَّ نفسه ولم يجد له من دواء سوى طلب العفو منه، وهذا طبعا، بعد الإقرار بذنبه يقول في ذلك[39]:

تَسَـــخُّطُكَ المُمِـــضُّ أَعَـــلَّ نفـــسي ومَـــالي غَـــيرَ عفـــوِك مـــن طَبِيـــبِ
ولســـتُ بمنكـــرٍ ذنـــبي، ولكنَّـــني قَـــدْ جِئـــتُ في حَـــالِ المُرِيـــبِ
فـــإنْ عَـــاقَبتَني فَجـــزاءُ مِثلـــي وإن تَصـــفَح فَلـــيسَ مـــن الغَرِيـــبِ
بَقيـــتَ مُؤيَّـــدًا، مـــا لاحَ بـــرقٌ ومـــا غـــنَّى الحَمـــامُ علـــى قَضـــيبِ

ونجده في نفس السّياق يخاطب أباه مسترضيا إياه وكلّه أمل في أن يداوي جراح قلبه وذلك لا يكون إلاّ من خلال الرّضا عنه خصوصا وأنّ والدّه يمتاز بالصّبر والحلم وسعة الصّدر يقول[40]:

مَـــــولايَ أَشـــــكُو إليْـــــكَ داءً أَصـــــبحَ قَلِـــــبي بِـــــهِ قريحَـــــا
إن لـــــم يُرِحْـــــهُ رِضـــــاكَ عـــــنِّي فَلســـــتُ أَدري لـــــهُ مُريحَـــــا
سُـــــخطُكَ قـــــد زَادَني سَـــــقَاماً فَابعـــــثْ إليَّ الرِّضَـــــا مَسِـــــيحا
واغفِـــــر ذنـــــوبي، ولا تُضـــــيِّق عـــــن حملِهـــــا صَـــــدرَكَ الفســـــيحا
لـــــو صـــــوّرَ اللهُ للمعَـــــالي جِســـــمًا لأصـــــبحتَ فِيـــــه رُوحـــــا

والملاحظ أنّ الشّاعر المعتمد جعل الرّوي هو حرف الحاء مقترنا بألف الإطلاق علّ ذلك يساعده على التّحرر من شعور الخوف والحزن وذلك بالارتماء في أحضان والده حيث رحابة الصّدر والاتساع وفسحة الأمل.

وقد أخذ المعتمد بن عبّاد يمدح أباه بالجود والكرم والسّخاء... ويستعطفه ويبيّن له وفاءه وإخلاصه وامتنانه الكبير لما قدّمه له من معروف وإحسان لأبيه الملك الذي يخشى عقابه ويرجو ثوابه ويتمنّى أن يَمُنَّ عليه بعفوه ورضاه وعندئذ تصبح الآمال البعيدة قريبة التّحقق يقول في ذلك[41]:

يَأَيُّهـــــا المَلِـــــكُ الـــــذي كفَّـــــاه بخَّلَتَـــــا السّـــــحاب
أنعمـــــتَ بـــــالبيض الكَعَـــــا بِ، عَلـــــيَّ والخيْـــــلِ العِـــــرابْ
وغـــــدوتَ تُخـــــشى للعِقَـــــا بِ، كمـــــا تُـــــرجَّى للثـــــوابْ
برضـــــاك أبصـــــرُ نـــــائيَّ الآمـــــال مـــــنِّي ذا اقـــــترابْ
وبِطِيـــــبِ أيَّـــــامي لَـــــدَيْكَ عَرفْـــــتُ أيَّـــــام الشّـــــبابْ
فَشـــــكرتُ مـــــا أَوْلَيْتَنِيـــــهِ مـــــن أَياديـــــكَ العِـــــذابْ

أمّا في مرحلة المُلك فلا نستغرب أن تتّسم رؤيّة المعتمد بن عباد للحياة بالتّفاؤل والقوة والبطولة وتزخر بالأمل والتّفاؤل والفرح واللهو، فقد عاش ملكا شاعرا ملَك الدّنيا بما فيها من متع وملذّات.. وقد جسد ذلك من خلال شعره الذي يفيض بمعاني العظمة والعز والفخر والحب والغزل والأمل، يقول[42]:

لـــــو أنَّ عُمـــــركَ ألـــــفُ عـــــامٍ كامـــــلٍ مـــــا كـــــان حقًّـــــا أن يُقـــــال: طويـــــلُ

من الطّبيعي أن يصدر هذا الكلام من ملك أوتي في الحياة الدّنيا من كل ما يشتهي من سلطان وعز وخيرات ونعيم.. فأحبّ الحياة وتمنى أن يعيش عمرا مديدا فلو أنّه عاش ألف

سنة لأراد المزيد وهذا لأنّ اللحظات السّعيدة تمرّ كلمح البصر خلافا للحظات الحزينة التي تمر عليه وكأنها أعوام طويلة.

ويبدو أنّ هذا الشّعور بالفرح والأمل الذي كان يشع في شعره لم يبق بنفس الوتيرة بل تناقص بشكل ملحوظ في مرحلة الأسر لكن وعلى الرّغم ممّا أصاب المعتمد بن عباد وآله، فإنّ المحنة لم تروّع قلبَه، ولم يطأطئ هامته، فما ذلّ ولا استعطف، ولا استرحم ولا استشفع، ولا ارتاع ولا روّع، وإنّما كان كالبدر، لم يحجب ضياؤُه، ولم يُستَر سناؤه[43].

ومن مظاهر الأمل والتّفاؤل في شعر المعتمد بن عباد أنّه حتى وهو في عزّ النّكبة لم ييأس بل كان لديه آمال معقودة في سماع أطيب الأخبار التي تُدخل على نفسه الفرح والسّرور ممّا يجعله لا يتشاءم من الغربان التي يتطيّر منها النّاس، بل إنّه يعتبر نعيقها فَأْلاً حسنا بقدوم بعض أقربائه، يقول[44]:

غِربانَ أغماتَ لا تعدّمْن طيبةً ... من الليالي، وأفناناً من الشّجر
تُظِلُّ زُغبَ فراخٍ تَستكنُّ بهَا ... من الحَرُور، وتَكفيها أذَى المطرِ
كما نعبتُنَّ لي بالفَأْلِ يُعجِبُني ... مخبِّراتٍ به عن أطيب الخَبر
أنّ النّجومَ التي غابت قد اقتربت ... منّا مطالعها تَسرى إلى القمرِ
علّي إن صدَّق الرّحمنُ ما زَعَمت ... ألاّ يُروَّعْنَ من قَوسي ولا وتَرِي
والله، والله، لا نَفَّرتُ واقِعَها ... ولا تطيّرتُ للغربان بالعَوَرِ

لقد عبّر المعتمد عن تجاربه المختلفة في الحياة، وصوّر لنا واقعه المعاش انطلاقا من خلجات النّفس بكل حالاتها السّعيدة والحزينة، وهو مدرك بأنّ النّعيم والبؤس شيئان متلازمان، وكان عزاؤه في محنته أملُهُ في الفرج رغم تلك الأيام الحالكات التي يذكّر نفسه بأنّ الملوك قبله كانوا قد مرّوا بها كما يمرّ بها هو وما زالتّ تلاحقه خطوبها السّود، يقول[45]:

تُؤمِّلُ للنّفسِ الشّجيّة فَرجَةً ... وتأبَى الخطوبُ السّودُ إلاّ تماديَا
لياليك من زاهيك أصفَى صحبتَها ... كذا صَحبتْ قبلُ الملوكُ اللّياليَا
نَعيمُ وبؤسٌ، ذَا لذلك نَاسِخٌ ... وبَعدَهما نسخُ المنَايَا الأمانيَا

غير أنّ المعتمد بن عباد كان لديه بصيص **أمل**، حيث نراه يدعو إلى التّفاؤل والإقبال على الحياة والاستمتاع بها لأنّ البقاء فيها قليل، يقول[46]:

علِّـــل فـــؤادَك قـــد أبـــلَّ عليـــلُ واغـــنم حَياتَـــكَ، فالبقـــاءُ قليـــلُ

ويبدو الشّاعر المعتمد موقنا بحقيقة الموت الذي لا ينجو منه أحد، ونجده يُعزّي نفسه بحتميّة الموت الذي لا يستثني أحدا، يقول[47]:

سَيُســلِي الــنّفسَ عمَّــن فــاتَ عِلــمي بـــأنّ الكُـــلَّ يُدركُـــهُ الفنـــاءُ

لقد أدرك المعتمد بن عبّاد حقيقة أنّ السّجين عندما يتحلّى بالصّبر على ما أصابه فإنّه يبحث من خلاله عن منافذ الأمل ويستعين به على المقاومة والبقاء، وينفذ منه إلى رحاب واسعة من ترقّب الفرج. وقد استرفد الشّعراء من هذا المعين النّفسي في الشّدائد، فكانوا يتجاوزون مصائبهم أو يتعالون عليها بالصّبر على مكروهها. وكان طريقهم إلى ذلك هو اللجوء النّفسي إلى الله صاحب القوّة المهيمنة المجيب دعوة من ناداه. والشّاعر السّجين أحوج إلى الإيمان اليقيني في الموقف الضّنك المخوف. فتومض الأفكار والمشاعر حول قطب واحد هو: الله والصّبر والفرج.[48]

من هنا يدعو المعتمد إلى القناعة والرّضا بنصيب كل واحد منّا مهما كان حظّه من الدّنيا ويؤكّد بأنّ سخط الإنسان على قدره وبذل الجهد في تغيير مصيره لا ينفعه في شيء وينصح كلّ من ابتلي بالبعد عن الأهل والوطن بضرورة الإيمان بالله علّه يأتيه بفرج قريب ويرى في ذلك أفضل عزاء، يقول[49]:

اقنـــعْ بحظِّـــكَ في دُنيَـــاك مـــا كانَـــا وعَـــزِّ نَفسَـــكَ إنْ فارقْـــتَ أَوطَانَـــا
في الله مـــن كـــلِّ مَفقـــودٍ مَضـــى عِـــوضٌ فأَشـــعِرِ القلـــبَ سُـــلوانا و إيمانَـــا
أَكُلَّمَـــا ســـنَحتْ ذِكـــرى طَربـــتَ لهتـــا مَجَّـــت دُموعَـــك في خَـــدّيك طُوفانَـــا
أمّـــا سَـــمعتَ بِسُـــلطانٍ شَـــبيهكَ قـــد بَزَّتْـــهُ سُـــودُ خُطـــوبِ الـــدّهر سُـــلطانَا
وَطِّـــن علـــى الكُـــره، وارقُـــب إثـــرَهُ فَرَجـــاً واســـتَغنمِ الله تغـــنَمْ منـــه غُفرانَـــا

لقد سلّم المعتمد بن عبّاد أمرَه إلى الله وأخذ يشكو همَّـهُ وحزنه إليه واقتنع بأنَّه لا يخيب مَنْ يلجأ إلى الرّحمانِ، يقول[50]:

قلـــبي إلى الرّحمـــان يشـــكو بَثَّـــهُ مـــا خـــابَ مـــن يشـــكُو إلى الرّحمـــانِ

القارئ لهذا البيت يلاحظ أنّ فيه من الحزن بقدر ما فيه من الأمل حيث أنّ الشّاعر كرّر كلمة (يشكو) مرتين للدلالة على الإحساس بالألم العميق والحزن الشّديد الذي يشعر به فبدأ في الشّكوى إلى الله، كما أنّ في تكرار كلمة الرّحمان دلالة عميقة على الالتّجاء إلى الله والاستسلام لأمره الذي لا مَرَدَّ له، فكان دائما في انتظار الفرج وهو يأمل في غد أفضل ونجده في هذه الحالة يكثر من الألفاظ الدّالة على الفرح والسّرور والحياة والسّعادة، والصّبر، والفرج والعزاء، والسّلوان، والنّعيم، والتّفاؤل...

يمكن القول بأنّ ثنائيّة الألم والأمل هي الوقود الذي غذّى روح الإبداع وزاد من إشعال جذوة الشّعر عند المعتمد بن عباد فتفتّقت قريحته بهذه القصائد الخالدّة؛ إذ لقد أحسّ بالألم والحزن والخوف من أبيه في مرحلة الإمارة وذلك دفعه إلى نظم شعر الاعتذار والاستعطاف وهذا الشّعور بالألم لا يخلو من أمل في أن يعفو عنه والده وبعد ذلك يختفي الألم ويظهر الأمل في الحياة بعد أن تربّع على العرش وعاش حياة الملوك التي تستند إلى القوّة والعزّ والبذخ...ثم يعود الألم من جديد مع مرحلة الحرب والعزل ليصل إلى أقصى-حد مع النّفي والأسر والسّجن ونتج عن ذلك شعوره بالحزن واليأس وإقباله على الموت ليتأكّد في نهاية المطاف بأنّه لا مفرّ من الاستسلام للأمر الواقع والإيمان بالقضاء والقدر وهذا ما جسّده من خلال إبداعه الشّعري.

هكذا كان شعر المعتمد بن عباد صورة صادقة عن تجربته في الحياة يجسّد واقعه بصدق فهو يحفل بذكريات الماضي ويصوّر الحاضر ويغوص في أعماق النّفس البشريّة بكلّ حالاتها من الحزن والفرح والألم والأمل فجاء شعره يزخر بآلامه وآماله وطموحاته وكُتب له البقاء والخلود على مرّ الزّمن.

الهوامش والإحالات:

[1] - يُنظر: بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار نظير عبود، (د.ط)، (د.ت) ص:147. وكذلك ينظر: حسن نعيسة: شعراء وراء القضبان دار الحقائق للطباعة والنّشر والتّوزيع بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص167. وينظر: أحمد أمين: ظهر الإسلام، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ج3 ط1، 1430هـ 2009، ص:176 وما بعدها. وينظر: حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص:968 وما بعدها. وكذلك ينظر: عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ط1، 1426هـ، 2006م ص:77.

[2] -يُنظر: مقداد رحيم: رثاء النّفس في الشّعر الأندلسي، جهينة للنشر والتّوزيع عمان الأردن، 1433هـ-2012م، ص: 210 وما بعدها.

[3] -المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق: حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط3، 1421هـ، 2000، ص: 38.

[4] -ابن الأبّار: الحلة السّيراء، تحقيق: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ج2 ط2 1985، ص:62.

[5] -المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:08.

[6] - المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:21.

[7] - المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.89

[8] - ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمّد شاكر، دار المعارف القاهرة، مصر، ج1، ط2 1967م، ص:.81

[9] - الجاحظ: البيان والتّبيين، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، دار مكتبة الخانجي، القاهرة، ج2 (د.ط)، (د.ت)، ص: .320

[10] - يُنظر: المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، المقدمة (25).

[11] - المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.68

[12] -سورة البقرة، الاية .74

[13]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.68

[14]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص: .70

[15]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.105

[16]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص: 95.

[17]-يُنظر: حسناء أقدح: (الصّورة الشّعريّة عند المعتمد بن عباد)، مجلّة جامعة دمشق، المجلد 28، العدد الثّاني، 2012، ص:.55

[18]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.110

[19]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.111

[20]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص: 98.

[21]-يُنظر: أحمد بن محمّد المقري التّلمساني: نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، مج1، 1388هـ 1968، ص:.440

[22]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:100-.101

[23]-يُنظر: محمّد السّعودي، خالدّ خليفات: (أسريات المعتمد بن عباد (دراسة نقديّة) مجلّة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد الأول والثّاني، 2011، ص:.216

[24]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.92

[25]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.108

[26]-أحمد مختار البزرة: الأسر والسّجن في شعر العرب، مؤسّسة علوم القرآن دمشق، بيروت، ط1، 1405هـ-1985م، ص:.476

[27]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.100

[28]-سورة الشّرح، الاية .06

[29]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:90. وكذلك ينظر: عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 116.

[30]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.93

[31]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:11من مقدمة الدّيوان وكذلك ينظر: ص:114.

[32]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.115

[33]-المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.94

[34]-ينظر: مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان بيروت، ط2، 1984، ص:.102

[35]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.112

[36]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق: حامد عبد المجيد، أحمد بدوي، ص:94-.95

[37]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.96

[38]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.32

[39]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.33

[40]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.33

[41]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.31

[42]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص: 25.

[43]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، المقدمة (13)

[44]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:100.

[45]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.117

[46]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.25

[47]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:.90

[48]- ينظر: أحمد مختار البزرة: الأسر والسّجن في شعر العرب، ص،.481

[49]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص:114-.115

[50]- المعتمد بن عباد: ديوان المعتمد بن عباد، ص: 115.